العرب
الإثنين 2019/12/23
السنة 42 العدد 11567

مقبول العلوي في «سفر برلك» يتوسّد بالتاريخ ليفضح الاحتلال

رحلة الانتقال من الصحراء إلى المدينة وتفاصيل الاستعباد المريرة

جـرت تغيّرات كثيـرة على مفهوم الرواية، تأثّـرا بالتحولات التي أفرزتها النظريـة النقدية تارة، ونظرية الرواية تـارة ثانية، والتغيرات التي أفرزتها الثورة التكنولوجية على المجتمع، الذي صار في سـباق محموم مع الزمن تـارة ثالثة، فلم يعد الشـكل الكلاسـيكي أو الزمـن الكرنولوجي أهم ما يميزها، بل صارت الكتابة أشـبه بلعبة تزاوج بـين الحضور والغياب في أحـد جوانبها. لكن المصير المثير للجدل أن هـذا غير حاضر في روايات الجوائز العربية التي تحبذ الكلاسيكيات.

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

في القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية، بين يديّ روايتان الأولى "فردقان: اعتقال الشيخ الرئيس" ليوسف زيـدان، وهي صـادرة عن دار الشـروق المصرية (2019)، والثانية "سـفر برلك" للسعودي مقبول العلوي، صادرة عن دار الساقي (2019).

> الرواية تتحرك مع شخصية ذيب بطلها وراويها، وهو شخص مجهول الاسم سقط في يد قطاع الطرق ليبيعوه

الروايتان تنتصران للحكي، وتضربان عرض الحائط بالتقنيات الحداثية التي مارسـها الروائيون في عالمنـا العربي، مـن سـتينات القـرن الماضـي، عندما تمردوا على الشـكل الكلاسـيكي. الأولى أشبه بسيرة غيريّة للشـيخ الرئيس ابن سـينا، والثانية، شبه سـيرة للبطل ذيب الخلاسـي، الذي وقع في الأسر، وإن كان مرّر عبر هذه السيرة القصيرة له، أحداث الثـورة العربيـة، لكونه شـاهدا على ما جرى من أهوال وانتهاكات.

هـذا الاحتفـاء بهـذه الروايات على مـدار مسـيرة جائـزة البوكـر، يشـكّل سـؤالا عن ماهية رواية الجوائز، خاصة بعد غيـاب صنعة الكتابة عـن الروايات المرشحة بصفة عامة.

سيرة ذيب

سـأتوقف عند رواية مقبول العلوي، وهو روائي سـعودي سـبق أن ترشّـح للقائمـة الطويلـة عام 2011 عـن روايته الأولـى "فتنة في جدة". وهـا هي المرة الثانية يصل إلى البوكر. روايته الجديدة "سـفر برلـك"، رواية قصيـرة لا تتجاوز 160 صفحة وهي سمة يتسم بها العلوي، فجميـع رواياته السّـابقة تأخذ سـمت الروايـات القصيرة الأقرب إلى النوفيلا، وإن كان يتكئ بشكل أساسي على السّرد وتناميه، متوسّـدا بلغة جاذبة سلسـلة، تشدّ القارئ إلى النص بسهولة.

العلوي في الرواية الجديدة "سـفر برلك"، والتـي تعنى باللغـة العثمانية النفيـر العام، والتأهّـب للحرب، يخدع قارئه، فبداية الرواية تذهب بنا إلى قطّاع الطرق واللصـوص، وغزواتهـم، التي تتوّج باختطـاف أبناء البوادي والقرى ذوي البشرة السـمراء، الخلاسيين، ثم بيعهم بعـد تبديل أسـمائهم في المدن وفي قلب الصحراء لأمراء البدو وشيوخ القبائل.

تتحـرك الرواية مع شـخصية ذيب بطلهـا وراويها، وهو شـخص مجهول الاسـم سـقط في يد قُطّاع الطرق، يُدْفع إلى البيـع، مُقيّد اليديـن والقدمين في حالة أسر. فيسـرد تفاصيل الاختطاف، ورحلـة الانتقال من بئـر درويش، غرب المدينـة المنورة عـام 1915، متنقلا في الفيافـي والوديان، وصـولا إلى حوش العبيـد بالمدينة المنـوَّرة، حيث يُباع إلى السيد عبدالرحمن المدني، صاحب المكتبـة والمخطوطـات، وهنـاك يبدأ حياة جديدة كمدوّن وحرّ في ذات الوقت.

يسـرد لنا وقائع رحلـة الانتقال من الصحراء إلـى المدينـة، وفيها يقترب السـارد الأنا مـن صفـة الرّحالة، حيث يقدّم صورة مُقـزّزة لهؤلاء قُطّاع الطرق ووسـائل تعذيبهـم للعبيـد، عقابا لمن يهـرب أو تهديدا لمن يفكّـر في الهرب بالموت دون أن تأخذهم شفقة ولا رحمة. وقـد يصـل التعذيـب إلـى الاغتصاب كما حدث مـع الطفل فـارس، ومن فرط الاغتصاب مات، ودفنوه في الصحراء.

في تغيير مفاجـئ بعد هذه الرحلة، التـي تقـود العبـد إلـى منزل السـيد عبدالرحمـن المدنـي، وقـد اشـتراه من حـوش العبيد، ودفـع فيه مبلغـا كبيرا من المـال، يسـتقر فـي منزل الشـيخ عبدالرحمن، وبعد أن يطيـب لـه المقـام مع سيده الجديد الذي يعامله علـى أنّـه ابنـه، يتحوّل السّرد إلى سرد تاريخي، يدخـل بنا إلـى أحداث الثورة العربية وصراع العثمانيين مع الشريف حسـين، ورغبـة العثمانييـن في ربط المدينة بالأستانة.

ومن ثـمّ تبـدو الرواية فـي إحدى صورها ليسـت حكاية الفتى ذيب، وما تعرّض له في حياته من رق واسـتلاب، أكثر من مرّة، وإنما هي بمثابة تسـجيل لأحـداث ووقائـع الاحتـلال العثماني للمدينـة، وانتهاكاتـه التي لم تقف عند البشر، وقسـوته التي وصلت إلى سبي الأم دون مراعاة لتوسـلاتها، بأن تجلب ابنتهـا حديثـة الـولادة. وغيرهـا من صـور تخلـق النفور من هـذا المحتل. وبالمثل سـرقة محتويات مكتبة عارف حكمـت والمكتبة المحمودية بالشـام، ونقـل ما بهمـا من مخطوطـات وكتب إلى إسـطنبول، وبالمثل نقل محتويات حجرة الرسول إلى إسطنبول.

تناقض سردي

الروايـة في مجملهـا، مجرد حكاية وتتبـع للأحـداث، لكـن كيـف صيغت الحكاية؟ هذا غير متحقّق، مع الأسـف، فالسّـرد قائـم علـى الضمير المتكلم فـي معظم أجزائه، وفي جـزء قليل منه أعار السّـارد صوته لأمـه، وهي تروي عـن مأسـاة الأب، وكيـف جُلبـت مـن بـلاد النوبـة. وعـن الإكراهـات التي مورست ضدهم من أجل أن يتنازل الأب عن البيت.

ولكـن في الوحـدة السـردية (32)، المعنونـة بـ"قلعة الحامية العثمانية (القشـلة) بالقـرب من بـاب العنبرية"، نجـد السـرد يتحـوّل إلـى الضمير الغائـب، فيحكـي عـن فخـري باشـا، ورفضـه الامتثال للواقع بعـد الهزيمة علـى يد الحلفـاء، وإصـراره على عدم الانسـحاب من المدينـة، فينقل لنا هذا الراوي الغائب الحوار بين فخري باشا والجنود، وانفعالاتـه، وكأنه راو قريب وملاصق للشخصيات.

هذا التحوّل في اسـتخدام الضمير لا نعرف سببه، خاصة وأنه في الوحدة السـردية التالية (33) المعنونة بـ"خان المحطـة – دمشـق –2"، يعود السـرد بالأنـا، وإن كان ينقل لنا المسـرود عن آخريـن هكـذا "وصلتني الأخبـار هنا في دمشـق..." وهو يتتبع مصير فخري باشا الذي اقتيد إلى مصر مقيدا، ومنها حملتـه سـفينة إلى مالطـا ليقضي بقية سـجنه معزولا هناك. ويكمل هكذا "وسـمعت أن حكـم المدينة المنورة قد آل إلـى الشـريف" وكان الأولى للـرواي أن يفعـل هـذا فـي الوحدة السـابقة، بدلا من أن يسـتحضر راويا غائبا (أشبه بالدخيـل) دون أن يكون له دور داخل النص، سـوى رواية هذا المشهد فقط.

الشـيء الثاني الذي لا يبدو منطقيا، أن ذيب مع أنه صار مِلْكًا للسـيد عبدالرحمن المدنـي، وقد منَحه الحريـة، في أن يفعل ما يشـاء، لكنه لم يبحث عن أمه التي تركها في الصحراء، بعـد أن خطفوه منها، ولم يفعل شـيئا، وظـل هكذا، حتـى تمّ نفيه قسـريا إلى الشام، وما إن عاد إلى المدينة بعد هزيمة العثمانيين على يد الحلفاء، أوّل شـيء فعله هو البحث عن السّـيد عبدالرحمن، وما إن فشـل في العثور عليه، يعود إلى البحث عن أمه ويقول بعد العثور عليها بعد غياب لثلاث سـنوات وبضعة أشهر بسبب الأسر "حالما وضعت وجهي على صدرها، وشـممت رائحتها، عدت طفلا صغير السـن" وبالطبع يريد الراوي أن نقبل منـه هذا الحنين الجارف إلى الأم. وهذا غيـر منطقي. وكيف لنـا أن نقبل تصميمه على أنه سيقاتل "حتى تكتحل عيناه بمرأى أمه"، وهو لم يفعل شـيئا، فعودتـه جاءت جبرية، بعـد فقد العثور علـى سـيده. ومـن ثـم كان البديل هو العودة إلى الأم.

فـي الحقيقة الصورة التـي أراد أن ينقلهـا المؤلف عبر راويه عن بشـاعة الوالي فخري باشـا، لا تختلف عن تلك الصـورة التي فعلها العمـدة وأنصاره بتهجيـر أسـرة ذيـب، دون أن نعلـم، لمـاذا هـم تحديدا؟ وما هـي دوافعهما من وراء الاسـتيلاء على المنزل؟ كما أن الشخصيات داخل النص لا نجد صراعا بينها، جميعها تميل إلى الشـخصيات السـلبية. الابن لم يفعل أيّ شـيء، وإن كان في حالة اغتصاب فارس كان المبرّر أنـه مقيّد، ولكن بعد أن وصل إلى سـيّد رحيم، ناداه بـ"يا بني"، لماذا تخاذل عن البحث عن أمه وخاله؟

وفـي مرحلة لاحقة اضّطـر إلى بيع مخطوطـات مكتبة السـيد عبدالرحمن ومكتبـة عارف حكمت، بثمـن زهيد كي يتمكّن مـن السـفر إلى مكـة. وبالمثل السـيد عبدالرحمـن المدني، لـم يفعل شـيئا إزاء الظلـم الواقـع علـى بنـي جلدته، الشـيء الوحيد الذي أزعجه أنه امتنع عـن "أكل اللحـم" لأن اللحم كان بشريا.

شاب يحلم بالحرية (لوحة للفنان بسيم الريس)

«سجين الزرقة» رواية عمانية تنتصر لمجهولي النسب

عمان – رغم أن الرواية المكتوبة بأقلام نسـائية في عُمان لم تظهـر إلا في أواخر تسـعينات القـرن الماضـي، مـع صدور روايـة "الطواف حيـث الجمـر" (1999) لبدرية الشحي، فإنها وُلدت ولادة طبيعية، فجـاءت محملـة بالكثيـر مـن مقومات التجربة الروائية النسـائية الناضجة، إذ يجـد قارئ هذه الرواية علو صوت المرأة الرافـض للصمت الطويل ضد الأنسـاق والأوضاع الاجتماعية البالية، كما يتضح لـه أنها تنطـوي على وعي فنـي ولغوي ورؤية فكرية متقدمة.

في روايتها الأولى "سـجين الزرقة"، الصـادرة حديثـا عـن "الآن ناشـرون وموزعـون" بعمّـان، تتنـاول الروائيـة العُمانيـة شـريفة التوبي، قضية مجهولـي النسـب، والموقـف الاجتماعـي مـن هـؤلاء الأبرياء الذين يدفعـون فاتورة وجودهم للحيـاة دون أن تكـون لهـم يد في ذلك. وهي مشكلة اجتماعية يتحمّلها إنسان لا ذنب له، ولم يختر حياتـه، يدفع ثمن نزوة أو خطأ لاثنين لم يفكرا في ما يمكن أن يكون عليه، كما أنها تُعد ظاهـرة كبيرة وخطيرة لأنها تمثـل ألغاما موقوتة، نظرا للأعداد المتزايدة في المجتمعات العربيـة، والتـي تقدر في بعـض الدول العربية، حسـب الإحصائيات السـنوية، بالعشرات من الآلاف.

"اعذرني يـا حبيبـي، إن كل ما تقرأه قـد فات أوانـه، أو أتاك متأخـرا، لقد بت سـجينة تلك الأيـام التـي قضيتها معك، تجربة الأمومة الأولـى التي أتت كتجربة عمر بأكمله".

بهـذه الكلمـات تخاطب الأم شمسـة ابنهـا راشـد الذي لم تسـتطع أن تقترب منه سـنوات طويلة، وهي تحترق شـوقا لرؤيتـه، وتضـع كل لهفتهـا في رسـالة مطولة يستعيدها الابن من خلال مجموعة أوراق تسـلّمها مـن رجـل لا يعرفه وهو يغادر بلده إلى بداية جديدة ونهاية لزمان لا يريد له أن يعود أو يتذكره.

تسـرد الروائية التوبي الأحداث بلغة تقريرية سلسة، وأحيانا بتوصيف رومانسي، ولا تتوقـف عنـد الموضوع بوصفه مشـكلة اجتماعية فحسب، بل تناقش القضية من وجهة فلسفية وإنسانية بوعـي الشـخصيات التي لا تستسـلم للواقـع الـذي يرفضهـا ولا يعتـرف بهـا، بل تكافح لإعطـاء معنى آخر للحياة.

تتعـرض الفتـاة القاصـر شمسـة لاعتداء مـن زوج أمهـا، وتحمل طفلا سـفاحا وهي على مقاعد الدراسـة، ويُحكـم عليها بالسـجن، ويفتح المولود عينيـه فـي عتمة السـجن، ثـم ينقل إلى دار الأيتام، ويكافح للنجاح في الدراسـة، وينخـرط في العمل، وهنـا تبدأ الصدمة التي تطحنه وتفجر رأسـه بالأسـئلة عن اسمه وعائلته.

> الروائية تسرد الأحداث بلغة سلسة وبتوصيف رومانسي، ولا تتوقف عند الموضوع بوصفه مشكلة اجتماعية فحسب

وتتعمق المأسـاة حينما يتعرف على الأنثـى التي يرى فيهـا الحبيبة والأم في آن معـا، ويقف أمام الأبواب المغلقة التي يسـدها المجتمـع فـي وجهـه بالصمت المريـب والنظـرات التي تمزق جسـده وروحه.

توظـف الروائية شـريفة التوبي في الروايـة عددا مـن التقنيات والأسـاليب التي تخفـف من ثقل الحكاية الإنسـانية ومأسـاويتها بتعدد الأصـوات، واختيار مسـتويات الحكـي باسـتعمال اللهجـة المحكيـة العُمانية حسـب الشـخصيات ومسـتوياتها المعرفيـة لتحقيق واقعية الخطـاب الروائـي، فضلا عـن تنويعها بين الحوار والحلم والتداعي والرسـائل والوصف.

ولأن روايـة "سـجين الزرقـة" تقـع فـي عدد من السـاعات، هـو الوقت الذي تسـتغرقه الرحلـة، فـإن الروائيـة تعمد إلـى المناورة على الزمن بوسـائل الحلم والخطـي والاسـترجاعي الـذي يتيـح للشـخوص سـرد حكاياتهـم بعـدد من القصص التي جاءت في خطين متوازيين: حياة راشد الذي يسـتعيد حياته في دار الأيتـام، وصديقه سـالم الـذي وُجد في كرتونـة أمـام مستشـفى، ولـم يبلغ من عمـره اليومين، وخـلال ذلـك يعبّر عن رأيه في الحياة والمجتمع، وأمه شمسـة التي تروي حكايتها في السـجن، وتسرد خلالهـا العديد من الحكايات لرفيقات لها وقعن في ما وقعت فيه، وعانين ما عانت، منهن حليمة ووردة ومروة وسلوى.

ومع كل تلك العقبـات التي تواجهها شـخصيات الروايـة وصدماتهـا، فإنها تبقـى متفائلـة فـي رهانها علـى الأمل وتجـاوز الماضي، فالروائية تغلق حكاية الأم شمسـة بنجاحهـا فـي العـودة إلى الدراسة، وزواجها من رجل ناجح ومتفهم لماضيهـا، في حـين تبقى حكاية راشـد مفتوحـة على الأفق في اختياره للسـفر، والانفصال عن ماضيه ليبدأ حياة جديدة.

سبعة شهور من الغزو

بيـروت – تُشكّل رواية «العرّاب.. السبع العجـاف» للكاتـب الكويتـي عبدالرزاق علي المنصور مرجعا حاسـما في تاريخ الكويـت المعاصـر. إذ تغطـي الرواية سـبع شهور عاشها أبناء الشـعب الكويتـي أثنـاء الغزو العراقـي للكويت في تسـعينات القرن العشرين مرورا بالتحرير حتـى زمـن صـدور الروايـة. وتأتـي الرواية كسـيرة ذاتية عن فترة تاريخيـة كتبها أحد أبنـاء الكويـت المناضليـن بقلمـه وهو بشـار سـلمان عاصم عسـكر وخصص لها الـراوي/ المشـارك عنوانا هو "السبع العجاف".

في تظهيـر الرواية، تنطلـق الرواية من لحظة مفاجئة عاشـتها عائلة كويتية تتمثـل بدخـول القـوات العراقيـة إلى الكويت فـي (31 يوليو 1990). يسـتعيد الكاتب/ الراوي أحداثها عبر مسار دائري فيروي المقدمات التي آلت إليها النهايات وذلك من موقع الشـاهد عليها والمشارك فيهـا، ويرصد ما تعرّض له بشـار وعائلته من عنف على يدي ضابط عراقي.

تكشـف الروايـة عن المآل غير الإنساني الذي انتهـت إليـه عملية الغزو وما شـكلته من مشهد قاتم ومرعب تجلت فيه القسـوة فـي أقصـى مداهـا، وهي العبـث بمكونـات الجسـد الإنساني وإهانته في الحروب (القتل والتقطيع والاغتصاب) ولعل السـارد لم يُخطئ بتشخيصها على قسـوتها، فانسـلت التفاصيـل بوصفها نسـيجا صوريا ودلاليـا غير منفصل عن أسلوب التكثيف الروائي لشحنات العنف.

قـدم الروائـي لعمله بمقدمـة جاءت تحت عنوان «مساحتي الوحيدة كمشارك مؤلـف الكتـاب» ومما جاء فيهـا "... كما تعلمت بأن حب الوطـن يُجاز به التعبير بالفـن والتمثيـل، فهناك مـن علّمني أن القلـم يكـون غالبا أشـجع من ابـن آدم في طـرح القضايا بأنواعها المتشـتتة، وأن الشـخصيات الورقية بـكل أبطالها، وألوانهـا، وأطيافها، تسـجل موقفا أكثر منطقية من الشخصيات الحقيقية...".

> «العرّاب.. السبع العجاف» رواية تسرد أحداثا مؤلمة عاشتها عائلة كويتية تعرضت إلى مختلف أشكال العنف وناضلت للبقاء